الاتجاه العلمي في التفسير: نشأته وتطوره

للدكتور
عبدالرزاق هرماس

اختلف الدارسون في إعطاء تعريف اصطلاحي لهذا الاتجاه اعتبارا لثلاثة أسباب :

- اختلاف مواقفهم بالنسبة للحكم على هذا اللون من التفسير
- تباين فهمهم لقضية الاعجاز القرآني.
- عدم اتفاقهم على تحديد المراد بمصطلح «العلم» في مجال التفسير.

ولعل أقدم تعريف اشتهر عند المعاصرين ما أورده أمين الخولي (ت 1386 هـ) ضمن "دائرة المعارف الاسلامية" ومؤداه أن هذا التفسير هو «الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها» [1].

وعرفه د. فتحي الدريني بأنه : «الاجتهاد بالرأي في سبيل ابتغاء توسيع مدلول النص القرآني بما يتفق وقضايا النظريات العلمية المستحدثة...» [2].

كما عرفه د. فهد الرومي بكونه : «.. اجتهاد المفسر في كشف

---

(1) أمين الخولي، مادة تفسير، ضمن دائرة المعارف الاسلامية جـ 5 ص 357، وقد اقتبسه الذهبي في التفسير والمفسرون جـ 2 ص 474، الطبعة الثانية 1396هـ دار الكتب الحديثة القاهرة ...

(2) د. فتحي الدريني، موقف الاصوليين والعلماء من التفسير العلمي، مجلة "أسماء" عدد 2 ص 42.

الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان» [3] ...

ومن أجل إعطاء تعريف منضبط للاتجاه العلمي في التفسير ينبغي :

أولا : استبعاد فكرة الإعجاز كلية لأن الوجه الوحيد المطرد للإعجاز القرآني هو الفصاحة والنظم كما درج عليه فطاحل دارسي الإعجاز قديما وحديثا [4].

ثانيا : الاقرار بأن المضامين العلمية التي يهتم بها هذا الاتجاه تقتصر على ثلة من آي القرآن، وجلّها لايحتوي على مضمون علمي، اعتبارا لذلك يجب تحديد موضوع التفسير العلمي وأنه يهتم بآيات الخلق في القرآن ..

تبعا لما سلف يمكن تعريف الاتجاه العلمي في التفسير بأنه :

«الإفادة من المشاهد التي عرض فيها القرآن الكريم لآيات الآفاق والانفس في مباحث العقيدة الإسلامية وذلك بتفسير ظاهرها باليقينيات التي وصل اليها العلم المعاصر دون العدول بها عن منهج التناول القرآني» [5].

نشأة الاتجاه العلمي في التفسير

تلقى الصحابة رضي الله عنهم القرآن والتفسير من صاحب الدعوة عليه السلام، وكان عمليا أن تتجه بعض استفسارات الصحابة

---

(3) د. فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر جـ 2 ص 549، الطبعة الأولى 1406هـ بإشراف ادارة البحوث العلمية الرياض.

(4) انظر في ذلك : هرماس، قضية الاعجاز القرآني .. ضمن مجلة المشكاة العدد 19 سنة 1415 هـ ص 135-143.

(5) وهذا ما انتهيت اليه بعد أن صَحِبْتُ الموضوع سبع حجَج في أطروحة جامعية.

في هذه الحقبة المبكرة لقضايا خلق الكون ونظامه ...، ومن ذلك السؤال عن الأهلة ... [6].

لكن الطابع العام الغالب على التفسير في عصر السلف الصالح كان يقتضي الوقوف عند البيان العملي اعتبارا لكون المنهج الإسلامي يقتضي أن «الأولى بأكثر الخلق الاشتغال بالعمل والاقتصار من العلم على القدر الذي يعرف به العمل» [7] ؛ وهذه الحقيقة هي التي تفسر لنا ندرة المأثور عنه ﷺ في مجال التفسير العلمي، بل إن موقف النبي من آيات الخلق يعطي للمسلم طريقة التعامل مع هذه الآيات، فقد كان منهج تعامله - عليه الصلاة والسلام - مع تفسيرها يقوم على :« الحث على البحث فيها، والتفكر والتدبر والتنبيه إلى فوائدها ... دون الإخبار عن حقائقها وأسبابها...، ولم يصح عن النبي ﷺ في التفصيل في الآيات الكونية كالسماوات وجوهرها ومم خلقت، ومقدار ما بين كل سماء والأخرى إلا شيء قليل جداً، وأغلب ما ورد في ذلك لم يصح ولم يثبت عنه» [8].

وبعد عصر النبوة ازداد انتشار الاسلام واعتنقه طائفة من «علماء أهل الكتاب»[9]، وكانت طائفة من المسلمين على عهد التابعين يسألونهم عن جزئيات الأحداث الواردة في القرآن مما اتصل بخلق الكون والإنسان، وكثرت الرواية عنهم في ذلك اعتبارا لعاملين :

---

(6) نُسِبَ السؤال الى معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقد تناقلت كتب التفسير روايات الحادثة وانظر : الواحدي، أسباب نزول القرآن ص 55، الطبعة الأولى 1411 هـ دار الكتب العلمية بيروت بتحقيق كمال بسيوني، وانظر الحادثة بتفصيل عند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن جـ 2 ص 341 طبعة مصورة عن نشرة دار الكتب المصرية ...

(7) ابو حامد الغزالي، ميزان العمل ص 227 نشر مكتبة الجندي القاهرة ضمن مجموعة رسائل ...

(8) محمد أبو شهبة، الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 48، الطبعة الرابعة 1408 هـ مكتبة السنة القاهرة.

(9) ولله در ابن خلدون، حين ذهب إلى أن أهل الكتاب في جزيرة العرب عوام لا يعرفون من كتبهم الا ما تعرفه العامة من أهل ملتهم، فلم يكن غريبا أن ينقلوا المناكير، انظر مقدمة ابن خلدون ص487 نشر دار الجيل بيروت.

1 – قلة المنقول عن النبي ﷺ في تفسير تلك الأحداث التي أجملها القرآن.

2 – تطلع النفوس إلى معرفة واستقصاء ما خفي عنها من أسرار الخلق، فكان اللجوء إلى مصادر أهل الكتاب وأخبارهم.

فأضحى تفسير آيات الافاق والأنفس مشحونا بالاسرائيليات ثم الموضوعات، وأضيفت إلى هذه الآثار الواهية الأسانيد المختلقة. «وفُسِّرَتْ» هذه الآثار قضايا مثل خلق الكون وترتيب السماوات وعُمرَ الافلاك، كما عملت هذه الآثار على تعليل بعض الظواهر الكونية تعليلا باطلا كالسحاب والرعد والبرق وغير ذلك ..[10].

على أنه تنبغي الإشارة إلى أن تفسير آيات الخلق اعتمادا على اخبار أهل الكتاب وأسمار القصاص ظل محدوداً في دائرة العوام الذين كانوا يَرَوْنَ كل مذكور مأثوراً، فلما ارتفع بُنْيَانُ علم الكلام خلال القرن الثاني الهجري، انتقل التفسير العلمي من مرحلة الاعتماد على الآثار إلى مرحلة الاستدلال العقلي.

المطلب الأول : بداية التأليف في التفسير العلمي

ابتدأ هذا التأليف خلال القرن الثاني الهجري[11] حين اتجهت طائفة من علماء الكلام إلى الاستفادة من آيات الآفاق والأنفس الواردة في القرآن ضمن مباحث أصول الدين، وكانت التآليف الأولى عبارة عن رسائل في التفسيرَ الموضوعي. وامتازت هذه التآليف :

1 – بأنها لم تقصد إلى تفسير آيات الخلق كلها حسب ورودها في القرآن، بل اهتمت ببعضها فقط، ومن ثَمّ كانت محاولات جزئية..

(10) هذه الاثار الواهية تضمنتها بعض التفاسير وهي أبطل من أن يشتغل بذكرها هنا.

(11) كان ديدن جل الدارسين المعاصرين اعتبار أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ) أول من دعا وروّج للتفسير العلمي وأول مؤلف فيه كذلك، وهذا لا يصح فقد سبقه الكثير من اعلام الاشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرهم ..

2 – أنها خرجت من عباءة علم أصول الدين .. فلم تكن لها علاقة بالتفسير والمفسرين ..

لقد ابتدأ التأليف في التفسير العلمي بتدوين محاولات شخصية لفهم آيات الخلق وتأويلها بالعقل، وتراكمت هذه المحاولات متأثرة بالمعارف المختلفة والعلوم المتنوعة والآراء المتشعبة والعقائد المتباينة[12].

ونستطيع أن نستشف من خلال أعمال المتكلمين التفسيرية عامة وما يتعلق منها بالآيات الآفاقية والنفسية على الخصوص كيف تطورت الاستفادة من هذه الآيات في مجال بحوث العقيدة ؛ وكان المتكلمون الأوائل ابتداء من القرن الثاني الهجري حلقة وسطى انتقلت عبرها الإرهاصات الأولى للتفسير العلمي إلى الأجيال المتتالية من المتكلمين ليبلغ الاتجاه العلمي أوجه مع فطاحل علماء أصول الدين أمثال أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ) وفخر الدين الرازي (ت 606 هـ) ...

فكانت بداية التأليف في التفسير العلمي مع الإمام جعفر الصادق (ت 148 هـ) في "رسالة التوحيد" التي نقلها عنه الفضل بن عمرو، ويظهر من خلال الرسالة أن الإمام الصادق استفاد من ثقافة عصره [13] وسعى لاستغلالها في خدمة عقيدته، وحين نرجع إلى "رسالة التوحيد" نجد الامام يورد آيات الآفاق في معرض الاستدلال على العقيدة، فيفسر ظاهرها حسبما تسعفه به معارف عصره العلمية، وهذه الرسالة تشهد بأن صاحبها كان له اشتغال "بعلم الفلك" وقد استفاد من دليل الآفاق في مباحث الاستدلال على التوحيد وإثبات الألوهية[14].

(12) الذهبي، التفسير والمفسرون جـ 1 ص 146.

(13) عاش جعفر الصادق في عصر نشطت فيه حركة الترجمة التي ابتدأت في عهد خالد بن يزيد الأموي (ت 85 هـ) ووصلت أوجها في حكم المأمون العباسي ...

(14) اهتم بهذا الجانب من فكر جعفر الصادق الشيخ أبو زهرة في تاريخ المذاهب الإسلامية ص 694 وما بعدها، دار الفكر العربي. القاهرة.

وبعد وفاة جعفر الصادق (148 هـ) ظهرت الكثير من التآليف المتصلة بالتفسير العلمي لكن هذه الإسهامات ظلت مرتبطة بأصول الدين :

فاهتم بالاتجاه العلمي بعض أعلام الشيعة ؛ واستغله الإسماعيلية منهم لأجل تقرير عقائدهم الباطنية الباطلة [15].

واهتم به المعتزلة الذين توسعوا في استغلاله خاصة بعد أن صار "دليل الحدوث" عمدتهم في الاستدلال على أصولهم ..

واشتغل بالتفسير العلمي طوائف من أهل السنة خاصة الأشاعرة كما تشهد على ذلك كتب أبي الحسن الاشعري (ت 324 هـ) الأصولية ...

المطلب الثاني : ارتباط التفسير العلمي بعلم الكلام

إن الدراسة المتأنية لعلم الكلام تُظْهِرُ – بما لا يدع مجالا للشك – أن هذا العلم هو الذي احتضن التفسير العلمي للقرآن بعد مرحلة نشأته، ففي إطاره نما وتشعبت مباحثه ..، وسواء بحث الدارس في الموضوعات التي تطرق إليها هذا التفسير، أو في الاعلام الذين تبنوه، أو في المنهج الذي ساروا عليه ...، سيجد بأن ذلك كله ارتبط ارتباطاً جذريا بالحركة الفكرية التي نتجت عن ظهور علم الكلام ومساره ابتداء من القرن الثاني الهجري.

أما علة ارتباط الاتجاه العلمي في التفسير بعلم الكلام فترجع إلى أن اهل الكلام من علماء أصول الدين جعلوا النظر والتفكر وسيلة للوصول إلى معرفة الله ؛ وتحقيق هذه المعرفة لا يكون إلا بالاستدلال العقلي ..

---

(15) من كتابات الباطنية في ذلك " الهفت والاظلة" جمعه المفضل الجعفي ونسبه زورا للصادق وقد حققه ونشره الباطني المعاصر عارف تامر مع عبده اليسوعي، ومن كتاباتهم ايضا "الرسالة الجامعة" للمستور وغيرها من المنشورات التي بدأ يروج لها الباطنية بعد أن وصلوا لسدة الحكم في بعض البلاد العربية ...

فأهل الكلام يرون بأن النظر هو طريق معرفة الخالق سبحانه، وهذا النظر يكون بواسطة الأدلة التي نصبها الله لتلك الغاية، على خلاف بين المعتزلة والأشاعرة حيث يقدم الأولون مطلق العقل في حين يحتكم الأشاعرة إلى ما دلّ عليه ظاهر القرآن.

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415 هـ) :

«إن الدلالة أربعة أوجه : حجة العقل والكتاب والسنة والإجماع، ومعرفة الله لا تنال إلا بحجة العقل ... فلأن ما عداها فرع عن معرفة الله تعالى بتوحيده وعدله، فلو استدللنا بشيء منها على الله، كنا مستدلين بفرع الشيء عن أصله وهذا لا يجوز»[16] ؛ وهذا الموقف لتيار الاعتزال ترتبت عليه قضايا منهجية برزت من خلال تعاملهم مع النصوص، فهم حين يستفيدون من التفسير العلمي لآيات الآفاق والأنفس في القرآن، إنما يستغلون هذا التفسير لتزكية نتائج ما قرروه في مباحث العقيدة ..، وحين يلجأون الى القرآن انما يفعلون ذلك لبيان موافقته لا للاستدلال به، ذلك ان قضية التسليم للنص تعتبر عندهم تالية للايمان وليست مؤسسة له.

وكان موقف الأشاعرة من قضية الاستفادة من دليلي الآفاق والأنفس في القرآن على خلاف ما درج عليه المعتزلة، فهم يرون تقديم مادلّت عليه نصوص الوحي على دلالة العقل. قال أبو بكر الباقلاني :

«إن أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد : النظر في آياته والاعتبار بمقدراته، والاستدلال عليه بآثار قدرته وشواهد ربوبيته، لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس، وانما يعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة القاهرة والبراهين الباهرة»[17].

(16) القاضي عبد الجبار الهمداني، شرح الأصول الخمسة ص 88، الطبعة الأولى 1384 هـ مكتبة وهبة القاهرة بتحقيق عبد الكريم زيدان.

(17) الباقلاني، الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ص 92، الطبعة الثانية 1382 هـ مؤسسة الخانجي القاهرة، بتحقيق محمد زاهد الكوثري.

ولعل أشهر مهتم بالتفسير العلمي من أئمة المعتزلة أبو عثمان الجاحظ (ت 255 هـ)، فقد ضمن كتابه "الحيوان" طائفة من مشاهد "الخلق" عرضها المصنّف بطريقة تجعل القارئ، "للحيوان" يدرك بعض أسرار الوجود ويصل إلى عظمة الموجد. أما المنهج الذي سار عليه الجاحظ في تفسيره العلمي لمشاهد الخلق، فيقوم على جمع النصوص القرآنية المتصلة بمشهد من المشاهد ثم يسعى بعد ذلك عن طريق استغلال تجاربه وخبرته إلى تفسيره، بحيث يصبح المشهد آية تُبَيِّنُ للإنسان التصور الذي يجب أن يرتكز في ذهنه عن الكون والمخلوقات المحيطة به، ولأجل تحقيق هذه الغاية يعمد الجاحظ إلى الاستفادة من تجاربه وسماعه، وفي كثير من الأحيان يشعر القارئ بمسحة وجدانية تطفو على هذا التفسير[18].

بعد وفاة الجاحظ برز الإمام أبو الحسن الأشعري (ت 324هـ)، فكان أكثر أهل الكلام استدلالا بآيات الخلق على قضايا العقيدة سواء اتصلت هذه الآيات بالنفس الإنسانية أو بخلق الكون وإبداعه، لكن اهتمام الأشعري بدليل الأنفس كان مضاعفا، حيث طغى عليه هذا الاهتمام في المرحلة الأخيرة من حياته، ويمكن للدارس أن يستشف ذلك من خلال مؤلفيه : «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» ثم في رسالته المسماة «رسالة إلى أهل الثغر»[19] ؛ وقد

(18) من أمثلة ذلك ما ذكره الجاحظ عن الحساب وفوائده وكيف أن القرآن يذكر هذا العلم في سياق كلامه عن دليل الآفاق، قال الجاحظ : «... ونفع الحساب معلوم، والخلة في موضع فقده معروفة، قال تعالى ﴿*الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان*﴾ – سورة الرحمن الآيات 1 إلى 4 – ثم قال ﴿*الشمس والقمر بحسبان*﴾ – الرحمن الآية 5 – وبالبيان عرف الناس القرآن، وقال تبارك وتعالى ﴿ *هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب*﴾ –يونس الاية 6– فأجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن، وبحسبان منازل القمر عرفنا حالات المد والجزر وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور، وكيف يكون النقصان في خلاف ذلك وكيف تلك المراتب وتلك الاقدار...» الحيوان جـ 1 ص 47 الطبعة الثالثة 1388هـ دار التراث العربي بيروت بتحقيق محمد عبد السلام هارون ؛ وانظر ما أورده في سياق تعليله لتحريم لحم الخنزير علمياً جـ 4 ص 49 - 50.

(19) قال ابو الحسن في سياق كلامه عن الاية 21 من سورة الذاريات ضمن "رسالة الى أهل الثغر" ص 34-35 مكتبة التقدم طبعة 1987 :

«... وكشف لهم عن طريق معرفة الفاعل لهم بما فيهم وفي غيرهم بما يقتضي وجوده ويدل على إرادته وتدبيره، حيث قال عز وجل﴿ *وفي أنفسكم أفلا تبصرون*﴾–الذاريات الآية 21-فنبههم= =

أضحى تراث أبي الحسن المتصل بدليل الخلق مادة علمية اقتبسها واستفاد منها جل المهتمين بعلم أصول الدين خلال قرون متتالية [20].

وبتتبع تاريخ الفكر الإسلامي يتبين أن علم الكلام كان –وعلى امتداد أجيال– هو الوسط الذي أسهم في تطور الاتجاه العلمي في التفسير ولا يقتصر الأمر على الأعلام الذين سبقت الاشارة اليهم، بل غيرهم كثير مثل : أبو منصور الماتريدي (ت 333هـ)، وأبو سليمان الخطابي (ت 388هـ)، وأبو بكر الباقلاني (ت 403 هـ)، وابو بكر البيهقي (ت 458 هـ)، وغيرهم من علماء أصول الدين الذين عرف اهتمامهم بتفسير آيات الخلق في القرآن الكريم والاستدلال بذلك على العقيدة.

تدرج التفسير العلمي

إن دراسة تاريخ الاتجاه العلمي في التفسير تقود الدارس إلى قناعة بأن التأليف في هذا الموضوع مر بمرحلتين :

الأولى : كان فيها جزءا من علم الكلام وغَرَضاً من الأغراض التي اُهتم بها المتكلمون، وفي هذه المرحلة لم يفرد هذا الاتجاه بالتأليف ولم يهتم به المفسرون، وظل جزءا من مناهج علماء أصول الدين في الاستدلال حتى القرن السادس الهجري حيث ظهر

= = «عز وجل بتقلبهم في سائر الهيئات التي كانوا عليها إلى ذلك. وشرح لهم ذلك بقوله عز وجل ﴿*ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين*﴾ –المومنون الآيات 12 إلى 14 – وهذا من أوضح ما يقتضي الدلالة على حدث الانسان ووجود المحدث له» ؛ "ورسالة أهل الثغر" مع " اللمع" حافلتان بالاستدلال على التوحيد والصفات بدليل الخلق عن طريق تفسير آيات الآفاق والأنفس علميا حسب معطيات العصر ...

(20) انظر على سبيل المثال لا الحصر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية خاصة الجزء 6 و7 بتحقيق د. محمد رشاد سالم ...

اهتمام أهل التفسير بهذا المنحى باعتباره غرضا من الأغراض التي انشغل بها المفسرون.

المرحلة الثانية : وتبتدئ أواخر القرن السادس الهجري، وفيها ظهر أول تفسير علمي وهو "مفاتيح الغيب" لمحمد فخر الدين الرازي (ت 606 هـ)، وتتالت التفاسير العلمية منذ تلك اللحظة، لكن هذا لم يمنع استمرار اهتمام علماء أصول الدين به، ان لم نقل ان دائرة اهتمامهم اتسعت ..

المطلب الاول : التأليف الموضوعي في التفسير العلمي

اعتبارا لارتباط الاتجاه العلمي بأصُول الدين من جهة، ولأنه -من جهة ثانية - يهتم -أساسا- بتفسير آيات الافاق والأنفس في القرآن - وهي موضوعه- وهذه الآيات قليلة مقارنة بغيرها من آيات القصص والأدب والأحكام ..، اعتبارا لذلك جَنَحَ جل المؤلفين في التفسير العلمي إلى نهج الأسلوب الموضوعي، الذي يُعْنَى بتتبع ظاهرة معينة في القرآن فهماً وتفسيراً وتأويلاً..

وقد اختار اكثر المتقدمين ممن اهتموا بالتفسير العلمي هذا الأسلوب عوضِ الأسلوب التحليلي الذي يسير مع آيات القرآن من أوّلها إلى آخرها.

ومن المفسرين العلميين الذين نَهَجُواْ الأسلوب الموضوعي :

- أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ) في كتاب "الحكمة في مخلوقات الله" [21].

- محمد بن تومرت - مهدي الموحدين. (ت 524 هـ) في كتاب "أعز ما يطلب" [22].

---

(21) وله ايضا "جواهر القرآن" .. وغيره، وقد شكك عبد الرحمن بدوي في نسبة "الحكمة ..." الى الغزالي، انظر : مؤلفات الغزالي لبدوي ص 257 الطبعة الثانية 1977، وكالة المطبوعات الكويت.

(22) كتاب في التوحيد على منهج المعتزلة، حققه عمار الطالبي ونشرته المؤسسة الوطنية للكتاب 1985، الجزائر.

– عبد الرحمان بن الجوزي (ت 597 هـ) في كتاب "التبصرة" وكتاب "لقط المنافع" [23].

– محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت 751 هـ) في "مفتاح دار السعادة ومنشور ولايتي العلم والإرادة" وفي غيره من كتبه المتعلقة بتقرير أصول الدين ...

ودرج هؤلاء المفسرين على تعقب بعض المشاهد المتعلقة بدليلي الآفاق والأنفس في القرآن، والتوسع في التنبيه إلى مختلف مضامينها العلمية وذلك اعتمادا على معارف عصر المفسر.

وتنبغي الإشارة في هذا السياق إلى أن التفسير العلمي تطور بتقدم الزمن، ففي عصر الإمام الغزالي – الذي اشتهر معه هذا التفسير – نجد جهود المفسرين العلميين جد متواضعة، ويكاد اهتمامهم ينصب على دليل الآفاق فحسب، حيث استفادوا في تفسيرهم لأطوار خلق الكون وتسييره من «الاستدلال بالحدوث» [24].

في حين أننا إذا انتقلنا إلى القرن الثامن الهجري نصادف توسعاً واستطرادا في إظهار مختلف المضامين العلمية المتعلقة بأطوار خلق الإنسان كما نبهت لذلك مختلف آيات الأنفس ونجد كذلك توسعا في فهم وتفسير مختلف ما جاء في القرآن بخصوص دليل الآفاق، ومؤلفات ابن القيم شاهدة على ذلك ...

وفي سياق الكلام عن التآليف الموضوعية في التفسير العلمي لا ينبغي إغفال ما تضمنته مختلف المصنفات المتعلقة بعلم أصول الدين، فقد كان ديدن المتقدمين –رحمهم الله – الرجوع إلى منهج القرآن في تقرير العقيدة، وقد اقتضى ذلك المنهج الرباني الاستفادة من دليل الخلق – باعتباره دليلا عقليا وفطريا – في الاحتجاج

(23) "التبصرة" كتاب في الوعظ وهو متداول أما "لقط المنافع" فقد أراده المؤلف في "علم الطب" ولازال مخطوطا فيما نعلم ..

(24) اشتهر هذا الدليل مع فرق المتكلمين ويقوم على البحث عن أسباب الخلق للوصول الى المحدث وهو طريقة استدلالية عقلية شرعية. انظر كلام ابن تيمية عنه في كتاب النبوءات ص 73 والفتاوى جـ 5 ص 343 وما بعدها ...

لقضايا التوحيد والبعث والجزاء ..، ولعل أشهر علماء أصول الدين الذين اهتموا بتفسير آيات الخلق تفسيراً علميا :

- أبو بكر بن العربي المعافري (ت 543 هـ) [25].
- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت 728 هـ) [26].
- محمد بن الوزير اليماني (ت 840 هـ) [27] ... وغيرهم.

المطلب الثاني : أشهر المصنفات في التفسير العلمي

تبعا لما سبق في المطلب السالف قلّ أن تتجه جهود المفسرين العلميين لتصنيف «تفاسير تحليلية» شاملة لجميع آي القرآن الكريم.

وبالرجوع إلى تاريخ علم التفسير نجد بأن التفاسير التحليلية التي اهتمت بآيات الافاق والأنفس، ورَوَّجَ فيها أصحابها للاتجاه العلمي لاتكاد تتجاوز عدد أصابع اليَدِ الواحدة، فحسب المعطيات المتوفرة راهنا لم يصنف دعاة التفسير العلمي من المتقدمين إلا أربعة تفاسير شاملة للقرآن كله :

صنف فخر الدين الرازي (ت 606 هـ) كتابه "مفاتح الغيب"[28].

---

(25) تضمن "احكام القرآن" للمؤلف درراً في التفسير العلمي ونفس الشيء نجده في كتابه "قانون التأويل" الذي صنّفه في أصول الدين ..

(26) عمد ابن تيمية الى الاستدلال على التوحيد بآيات الخلق في مختلف كتبه خاصة كتابه «درء تعارض العقل ..».

(27) انظر من كتب المؤلف : "ايثار الحق على الخلق في مذهب أهل الحق من أصول الاعتقاد" ثم «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» ..

(28) «مفاتح الغيب» ضمنه مؤلفه تفسيرا علميا لمختلف آيات الخلق، وتوسع في ذلك كثيرا، كما تضمن الكتاب تفسيرا فقهيا لآيات الأحكام وتفسيرا أثريا لآيات القصص ...، لكن اشتهر عند المتقدمين والمتأخرين بتلك المباحث الواسعة في أصول الدين.

وصنف محمد أبو الفضل المرسي (ت 655 هـ) "التفسير الكبير" [29].

وصنف علي بن أحمد الاموي (ت 710 هـ) "تبصير الرحمان وتيسير المنّان ببعض ما يشير إليه إعجاز القرآن" [30].

وألف محمود الالوسي (ت 1270 هـ) تفسيره المشهور "بروح المعاني" [31].

وأشهر هذه المصنفات جميعا كتاب "مفاتح الغيب" الذي اهتم فيه مصنفه بالبحث عن حِكَمِ الموجودات، فكان في تفسيره لآيات الآفاق يبحث عن تفاصيل وَأسرار خلق الكون ليقيم بها البراهين والدلائل على الخالق وصفاته.

فكتاب الله بالنسبة للرازي لم ينزل ليتعامل معه المفسر حسبما يفترضه منهج أهل الكلام الذين يؤسسون استدلالهم على الحدوث والعلية، بل إن التفسير يجب أن يقصد منه -حسب الرازي- إبراز أسرار الوجود ودقائق صنع الله في الكون، مما يعني أن درس التفسير هو عمل علمي تجريبي بعيد عن الجدل الكلامي والنقاش اللغوي والروايات المأثورة. قال الرازي في هذا السياق :

« ... إذا ثبت هذا فنقول : من الناس من اعتقد أن جملة هذا العالم مُحْدَث فله محدثٌ ، فحصل بهذا الطريق إثبات الصانع تعالى، وصار من جملة المستدلين.

ومنهم من ضم إلى تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم

---

(29) اكْثَرَ المتأخرون الاقتباس من هذا التفسير الذي لم يكتب له النشر فيما نعلم.

(30) كتاب غلب عليه التفسير الإشاري للقرآن، لكن تضمن مباحث في التفسير العلمي.

(31) "روح المعاني" تفسير زَوَاجَ فيه الألوسي بين التفسير العلمي والتفسير الإشاري.

العلوي والعالم السفلي على سبيل التفصيل فيظهر له في كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة وأسرار عجيبة، فيصير ذلك جاريا مجرى البراهين المتواترة والدلائل المتوالية على عقله، فلا يزال ينتقل كل لحظة ولمحة من برهان إلى برهان آخر، ومن دليل الى دليل آخر. فلكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات، فإذا ظهر الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل الكتاب لهذه الفوائد والاسرار لا لتكثير النحو والغريب والاشتقاقات الخالية من الفوائد والحكايات الفاسدة. ونسأل الله العون والعصمة» [32].

على ان كتاب "مفاتح الغيب" الذي اشتهر به الرازي لم يقف عند حدود التفسير العلمي للقرآن، بل هو موسوعة حافلة بالعلوم الشرعية وأيضا العقلية والتجريبية .. [33]، وقد صنف الرازي اضافة الى "المفاتح" كتاب "أسرار التنزيل وأنوار التأويل" خصه كلية لتفسير آي القرآن المرتبطة بالظواهر الكونية والنفسية من غير خوض في الفقهيات التي حفل بها "مفاتح الغيب" [34].

حاضر الاتجاه العلمي في التفسير

تنبغي الإشارة مبدئيا وقبل دراسة الاتجاه العلمي في التفسير خلال العصر الراهن إلى جملة من القضايا المنهجية والموضوعية المتصلة بهذا التفسير اليوم :

---

(32) الرازي، مفاتح الغيب جـ 14 ص 127، المطبعة الحسنية بمصر.

(33) تناقل الدارسون قول ابن تيمية رحمه الله في الكتاب «فيه كل شيء الا التفسير» ولم يدرك أغلبهم مغزى الكلام، ولو قَدَّرَ الله ان تجمع مسائل آيات الاحكام التي تضمنها الكتاب فقط لَخَرَجْنَا من ذلك الجمع بمصنف في التفسير الفقهي ...

(34) كتاب "أسرار التنزيل" مرتب في مقدمته على أربعة اقسام : الاصول والفروع والاخلاق والمناجاة، وتوفي الرازي (606 هـ) بعد اتمام القسم الاول منه فقط عرض فيه بإسهاب لدليلي الآفاق والأنفس.

أ – أن التفسير العلمي للقرآن تطور في نطاق محدود خلال القرون السابقة، لكنه طغى على اهتمام الكتاب والناشرين، وكثر التأليف فيه سواء من قبل المهتمين بعلم التفسير والعلوم الشرعية بصفة عامة أو من قبل غيرهم ممن «استهوتهم» الكتابة في هذا الموضوع ..

ب – أن المجالات والمعارف التي اتجه المعاصرون لاستغلالها في التفسير العلمي اتسعت كثيرا، فأصبح هناك تفسير علمي يعتمد علم الفلك وآخر يستند الى علم الحياة (البيولوجيا)، وثالث ينطلق من معطيات علم الطب، ثم الرياضيات، ونستطيع أن نقول بأنه لا يوجد فرع من فروع العلم التجريبي أو النظري لم يربط بالقرآن وبالتفسير .

جـ – ومما ينبغي التنبيه اليه كذلك أن اتساع دائرة التفسير العلمي فَتَحَ الباب لغير المؤهلين علميا، فتصدى للتفسير العلمي من كان مؤهلا جامعا لشروط التفسير بالرأي والاجتهاد، كما خاض في هذا التفسير طائفة من القاصرين علمياً..

د – وأخيرا تجب الإشارة إلى أنه ترتب على ما سبق رواج الكثير من الإنشائيات المنسوبة «للتفسير العلمي للقرآن» رغم تجاوز أصحابها لمختلف الضوابط المتصلة بعلم التفسير. فعلى مستوى المضمون وجدت الكثير من هذه الانشائيات التي لم يراع مؤلفوها مراجعة مصادر استمداد العلم ....، وعلى مستوى المنهج نجد من المفسرين العلميين المعاصرين من درج على تجاوز ما تقتضيه قواعد التفسير وآدابه.. والدراسة الموضوعية لحاضر الاتجاه العلمي تستوجب تصنيف مختلف ما نشر في «التفسير العلمي القرآن الكريم» في مجموعتين :

المجموعة الأولى إسهامات في التفسير العلمي منضبطة منهجيا من حيث أن أصحابها رجعوا إلى المصادر التي يستمد

منها علم التفسير نقلية واجتهادية، كما التزموا بما تقتضيه قواعد العلم، وامتثلوا لآداب التفسير الذاتية والموضوعية[35].

المجموعة الثانية : إسهامات منحرفة في التفسير العلمي أرادها أصحابها مجافية لأصول التفسير ومتنافية مع ما تقتضيه قواعده وآدابه..، وكانت هذه الإسهامات المنحرفة عبارة عن كتابات عاطفية وإنشائيات قاصرة، خاض أصحابها في كتاب الله عز وجل تدفعهم «عواطفهم» الدينية، وشدة حرصهم على ولوج ميدان والتصدي لعلم لم يكونوا مؤهلين له، فكانت هذه الإسهامات المنحرفة متجنِّيَةً على كتاب الله وعلى علم تفسيره.

المطلب الأول : الإسهامات المعاصرة المنضبطة منهجيا

اذا كان تفسير القرآن يعنى بإبانة مراد الله تعالى فيما نزل على نبيه ﷺ بحسب الطاقة البشرية ..، وإذا كانت غاية هذا العلم هي بيان دلالة ألفاظ القرآن وجمله ؛ فإن الاتجاه العلمي في التفسير وجد باعتباره منحى اهتم -أساساً- بإبراز وتفسير مختلف المشاهد التي تضمنتها آيات الخلق في القرآن الكريم.

ذلك أن القرآن سلك في دعوته للناس سبيل الموعظة وسبيل الحكمة [36]، وقدم الحكمة وربطها بالتفكر والتدبر، ثم هو بيّن

---

(35) كثيرا ما كان غياب هذه الآداب سببا في انحراف التفسير العلمي، ومن هذه الآداب : صحة الاعتقاد، والاخلاص والتفويض لله، والرغبة في الوصول الى الحق، والتدبر والتفكر، فقد تقود المفسر ثقته بنفسه أو "بعلمه" إلى الاخلال بشيء من ذلك ...

(36) ذكر الله تعالى في سورة النحل الآية 125 سبيلا ثالثا هو الجدل ...، لكن سياق الآية يشير إلى أنه ليس من سبل الدعوة بل المقصود به غرض آخر وهو الافحام والالزام. انظر مبحثا نفيسا في الموضوع عند الرازي في مفاتح الغيب جـ 20 ص 112 الطبعة الأولى 1411هـ دار الكتب العلمية بيروت.

للمدعوين سبيل التفكر عن طريق النظر في آيات الآفاق والأنفس خاصة[37].

وتضمن سياق كلام القرآن عن هذه الآيات إشارات إلى قضايا علمية جاءت مبهمة في عصر الرسالة، وتولى بعض المفسرين في العصر الراهن بيانها في حدود ما وصل إليه العلم البشري.

وبحكم أن طائفة من هؤلاء المفسرين استطاعوا الإلمام بأحد فروع العلم الحديث إضافة إلى معرفتهم بقسط مهم من العلم الشرعي، فقد أقدموا على تفسير هذا الجانب من القرآن تفسيرا علميا، وصدرت اعمالهم -غالبا- في شكل تفسير موضوعي.

وتبعا لالتزام هؤلاء المفسرين العلميين بالأصول والقواعد والآداب التي تؤهل الإنسان للكلام في معاني آيات القرآن ..، فقد جاء تفسيرهم العلمي سليما منضبطا ممهداً لنفسه طريق القبول والرواج..

ومن الإسهامات النموذجية في التفسير العلمي المنضبط كتابات د. محمد علي البار عن "خلق الإنسان بين الطب والقرآن"[38]، حيث عمد المؤلف إلى مختلف الآيات القرآنية المتعلقة بدليل الأنفس فجمعها ثم رتبها في مباحث على حسب موضوعها، ثم فسرها مبرزا مختلف مضامينها العلمية اعتماداً على نصوص الوحي نفسه وكتب التراث وما وصل إليه علم الطب من حقائق يقينية ..

وجاءت مباحث الكتاب على شكل "محاضرات" في التفسير

---

(37) قال تعالى في سورة فصلت الآية 53 ﴿*سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد*﴾

فمن لم تكفه شهادة الوحي المخبرة بأصول العقيدة، ولم تكفه المعجزات المتواترة، فهو مأمور بالتدبر في الآيات المشاهدة التي نبه إليها القران وجعلها أدلة على ما جاء به. انظر في الموضوع: ابن تيمية، الفتاوى ج 14 ص 189-190.

(38) وقد يسر الله للكتاب سبيل النجاح والرواج بين القراء كما تدل على ذلك طبعاته المتكررة ...

الموضوعي، تتبع الكاتب من خلالها خلق الإنسان من مرحلة ما قبل النطفة إلى مرحلة الولادة، والكتاب يدرس دليل الأنفس في ضوء علم الأجنة الذي هو فرع من تخصص التوليد في علم الطب، قال المؤلف معرفا بكتابه :

« ... الكتاب يعرض لتفاصيل في التفسير والحديث وكلام العلماء قل من يفهمها إلا من كان له المام بدراسة الكتاب والسنة. كما ان الكتاب يعرض تفاصيل طبية قل من يدركها من غير الأطباء وطلبة الطب والصيدلة والعلوم ...» [39].

وأهم ماميز كلام د. البار في تفسيره لآيات الانفس اعتمادا على معطيات علم الأجنة، أنه احترز مما وقع فيه العدد من المعاصرين الذين استخرجوا من القرآن الكريم حتى جزئيات الأمراض والوقاية [40]...، والقارئ لكتاب "خلق الإنسان بين الطب والقرآن " يدرك أن المؤلف لم يقدم على تفسير آيات الأنفس علميا إلا بعد أن توفر على ما يؤهله لذلك، والمؤلف أيضا نموذج للعالم الذي يبذل جهده للاستفادة الإيجابية من علمه في مجال فَهْمِ القرآن الكريم دون أن يغفل ما يقتضيه التدبر والتفويض لله، وقد وصف عمله في مقدمة الطبعة الأولى بقوله :

«ولقد حاولت جهدي أن أسير على بصيرة من كتاب الله وسنة رسوله، مهتديا بكلام جهابذة العلماء، فإن أصبت فالحمد لله وان اخطأت فأستغفر الله» [41].

وموجز الكلام بهذا الخصوص أن معيار قبول أوردّ مختلف ما كتب عن التفسير العلمي يرجع إلى مدى وفاء هذه الكتابات

---

(39) د. محمد علي البار، خلق الانسان بين الطب والقرآن ص 20-21، الطبعة السادسة 1406 هـ، الدار السعودية للنشر جدة.

(40) انظر هذا الجانب السلبي في كتابات محمد الجميلي من مصر، وفي إنشائيات ادريس بنيوسف من المغرب ...

(41) خلق الانسان بين الطب والقرآن ص 21.

وأصحابها لما تقتضيه أصول التفسير وقواعده وآدابه، وعلى كثرة الكتابات المتصلة بموضوع التفسير العلمي فإن نسبة قليلة منها فقط كانت وفية لمختلف الضوابط المنهجية.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن بعض المفسرين المعاصرين الذين ألفوا تفاسير شاملة للقرآن كانت لهم عناية بآيات الآفاق والأنفس، فضمنوا كتبهم مباحث في تفسير هذه الآيات علميا رغم أنهم لم يقصدوا إلى التفسير العلمي، ومن هذه المؤلفات المعاصرة "التيسير في أحاديث التفسير" للشيخ محمد المكي الناصري (ت 1413 هـ) وقد حرص المؤلف على الوقوف عند الكثير من ايات الآفاق والأنفس وتفسيرها علميا مع الالتزام بالضوابط المنهجية لذلك(42).

المطلب الثاني : الإسهامات المنحرفة في التفسير العلمي

ظهرت في العصر الراهن الكثير من الكتابات التي تعرضت لتفسير ايات القرآن «علميا» ألفها ونشرها عدد من أبناء هذه الأمة على الرغم من كونهم غير مؤهلين للإقدام على التفسير. واذا كان جانب من إسهامات المعاصرين في التفسير العلمي قد استوفى شروط القبول، فإن جانباً مهما من الكتابات المعاصرة في الموضوع كان بعيداً عن القبول.

والملاحظ أن بعض الكتابات المعاصرة كانت إسهامات عاطفية ولج أصحابها مجال تفسير القرآن تدفعهم «العاطفة» الدينية لإظهار فضائل القرآن خاصة والإسلام عامة، فكان هؤلاء الكتاب يعتمدون التدليس غير عابئين بما يترتب على ذلك في تصور القارئ ...

(42) انظر على سبيل المثال كلام الشيخ عن تطور خلق الانسان في تفسير الآية 5 من سورة الحج ضمن "التيسير" جـ 4 ص 156 ؛ وكلامه عن الرتق والفتق في تفسير الآية 30 من سورة الانبياء ضمن نفس المصدر جـ 4 ص 120 .. الطبعة الأولى 1405 هـ دار الغرب الاسلامي بيروت.

كما أن بعض الكتابات المعاصرة كانت إسهامات قاصرة، لم يحصِّل أصحابها أدنى حظ من العلم الشرعي الذي هو عمدة التفسير، ولم يحاولوا الرجوع إلى مصادر هذا العلم، بل خاضوا في آيات الله ببضاعة "علمية مزجاة".

وعموما فإن أهم عاملين انحرفا بالتفسير العلمي هما :

* الجنوح مع العاطفة.

* الجهل بالعلم الشرعي.

ولإظهار الأثر السلبي لهذين العاملين في التفسير خلال العصر الراهن، قد يكون من الأنسب عرض نموذجين للإسهامات المنحرفة في التفسير العلمي.

أولا : أثر العاطفة في انحراف التفسير العلمي من خلال كتاب "الإعجاز العددي للقرآن الكريم" تأليف عبد الرزاق نوفل (ت 1404 هـ) :

بحكم عدم التزام الضوابط الموضوعية والمنهجية المتعلقة بالتفسير عمدت فئة من المعاصرين إلى تزكية النفس، وخاضت في آيات القرآن تفسيرا وتأويلا، تدفعها "العاطفة الدينية" والرغبة في بيان فضل القرآن، ولو سلكت لأجل ذلك نهج التدليس، ويبدو أن هذه الفئة اعتقدت أن حسن النية وصفاء الطوية فقط يؤهلان المرء لتفسير كتاب الله ..

والملاحظ أن هذا المنحى "العاطفي" لا يخلو أبداً من تمحل في حمل الآيات على معان غير مرادة، كما يطبعه التكلف في البحث والاحتجاج على «معاني علمية» يرغب في إضفائها على نصوص القرآن ..

ومن النماذج المجسدة لهذا المنحى كتاب "الإعجاز العددي للقرآن الكريم" الصادر في ثلاثة أجزاء وضمنه مؤلفه ما اعتبره "معجزة القرآن الحسابية" ؛ فمن أمثلة تدليس الكاتب في تفسيره العلمي الإحصائي على سبيل المثال لا الحصر :

1 – ما أورده عن ذكر إبليس في القرآن، وأنه تكرر إحدى عشرة مرة، في حين أن الله تعالى أمر بالاستعاذة منه في القرآن إحدى عشرة مرة كذلك ... وهذا التوافق يعتبر إعجازا عدديا للقرآن في عصر الحاسوب [43].

وحين نرجع إلى "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن" نجد بأن ابليس – لعنه الله – ورد في القرآن بنفس العدد (إحدى عشرة مرة) [44].

وإذا رجعنا إلى لفظ الاستعاذة في "المعجم" أيضا نجدها وردت في القرآن بصيغة: "عُذْت" –مرتان [45] و"أعُوذُ"–سبع مرات[46] – ويَعُوذُونَ – مرة واحدة [47] – وأُعِيذُهَا – مرة واحدة [48] – و"فاسْتَعِذْ – أربع مرات [49] – "مَعَاذَ اللّهَ– مرتان[50] – ومجموع ذلك سبع عشَرة مرة [51].

وقد أخلد الكاتب إلى "عاطفته" التي جنحت به إلى الاقتصار في عملية العد على لفظ "أعُوذُ" الوارد في القرآن سبع مرات، ولفظ "فاسْتَعِذ" الوارد أربع مرات دون بقية ألفاظ الاستعاذة، ظَاناً أنه بهذا العمل يظهر عظمة القرآن وإعجازه !!

2 – وفي الجزء الثالث من الكتاب ذكر المؤلف أن لفظ "اليوم" ورد بصيغة المفرد في القرآن 365 مرة وهو ما يوافق عدد أيام السنة ... [52].

---

(43) عبد الرزاق نوفل، الاعجاز العددي للقرآن الكريم جـ 2 ص 15، الطبعة الثالثة 1975 م مطبوعات الشعب للصحافة، مصر.

(44) انظر : محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم الفهرس لألفاظ القرآن مادة "بلس" ص 134.

(45) في سورة غافر الآية 27 وسورة الدخان الآية 20.

(46) البقرة 67، هود 47، مريم 18، المومنون 97 و98، الفلق 1، الناس 1.

(47) سورة الجن الاية 6.

(48) سورة آل عمران الآية 36.

(49) الاعراف 200، النحل 98، غافر 56، فصلت 36.

(50) سورة يوسف الآيتان 23 و97.

(51) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة "عوذ"، ص 494.

(52) نوفل، الاعجاز العددي جـ 3 ص 168-169.

لكن بالرجوع إلى "المعجم المفهرس" نجد بأن الكاتب اقتصر في العَدّ على لفظي "اليوم" و"يوما" فقد وردا 364 مرة، وأسقط "يومكُم" و"يَوْمَهُم" ويومئذ" وردت ايضا في القرآن مفردة إذا أضفنا عددها أصبح العدد 444 مرة !!! (53).

والطريقة التي سار عليها الكاتب – ومن على شاكلته – تقوم على :

– افتراض توافق عددي بين شيئين في القرآن.

– اللجوء إلى العد والإحصاء لمعرفة مجال توزيعهما في كتاب الله.

– التصرف في الأعداد حذفا وزيادة دون اعتبار لأي ضابط.

وتعتمد هذه الطريقة في رواج كتابات أصحابها على استغفال القارئ العادي الذي يجعله الإعجاب والانبهار لا يفكر في مراجعة ما قدم إليه من معطيات جاهزة (54).

ثانيا : الجهل بالعلم الشرعي وأثره في انحراف التفسير العلمي

تفسير القرآن ليس مباحا لأي كان، ولابد للمقدم عليه أن يكون مؤهلا له، وليس المقصود بهذا إغلاق باب فهم القرآن وتفسيره على المسلم، بل المبتغى وضع حد لأي تقوّل يؤول إلى الافتراء على رب العزة.

إن علوم الدنيا على كثرتها وتنوعها لا يسمح الناس لغير ذوي الدارية والاختصاص بالنظر والكلام فيها سواء كانت علوماً نظرية أو تجريبية ...، فكيف يسمح لمن ليس مؤهلا بالكلام في تفسير القرآن ؟؟.

---

(53) انظر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن، مادة يوم، ص 775 وما بعدها.

(54) ومن أشنع " التفاسير العلمية الاحصائية" الباطلة التي لُبِّسَت على الناس أعواماً كتابات البهائي محمد رشاد خليفة الذي اتخذ التفسير العلمي مطية لدعوته الباطنية ...

لقد تضمن كتاب الله أحكاما فقهية وآداباً وأخباراً وغير ذلك، ويجب على مفسره أن يستوفي الشروط التي وضعها العلماء لذلك..، أما إذا تجاهل المقدم على التفسير ما يجب عليه وخاض في آيات الله، فهو بلا شك يدخل فيمن "قال في القرآن بغير علم" . ولا يمكننا أن ننتظر ممن هذا هو حاله أن يدرك الحق في عمله، ويبلغ ما يقرر به معاني القرآن .. بل الأصل ان الخائض في التفسير بغير علم مخطئ دائما ولو خيل إليه أنه أصاب (55) ..

وقد قاد الجهل بالعلم الشرعي بعض دعاة التفسير العلمي المعاصرين الى اسقاط غرائب على آي القرآن معتقدين أنهم يحسنون صنعا.

ومن نماذج هذا التفسير المنحرف الراجع إلى الجهل بالعلوم الشرعية ما نجده في كتيب "القرآن ... محاولة فهم عصري" (56) ؛ حيث عمد المؤلف إلى الكلام في العديد من آيات القرآن برأيه المجرد الذي استغنى به عن أصول التفسير وعلومه ..، ومن أمثلة هذا التفسير المنحرف :

1 – إسقاط نظرية داروين في التطور على مطلع سورة السجدة. قال : "وفي سورة السجدة نستشف حكاية التطور من استطراد الايات 7 و8 و9 وفي هذه الآيات نقرأ أن الله هو الذي ﴿*أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون*﴾. في البدء كان الطين ثم كانت سلالة من ماء مهين ...، ثم كانت التسوية والتخليق والتطوير عبر هذه السلالات ... ؛ وهذا الاستطراد بهذا السياق

---

(55) وذلك مصداقا للحديث الذي رواه أبو داود عن جندب ومفاده أن من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، ج 2، ص 55، ط. دار الفكر. د – ت.

(56) الكتيب في أصله مجموعة "مقالات" نشرت في مجلة "صباح الخير" المصرية ما بين دجنبر 1969م وأوائل 1970 م بعنوان "تفسير عصري للقرآن"، فلما جمعها كاتبها طبعها بعنوان "القرآن ... محاولة فهم عصري" لأن "التفسير العصري للقرآن" واجهته حملة استنكار ونقد في مصر وخارجها، زاد من حدتها نشره في مجلة ميوعة.

المتسلسل ينفي عن الذهن أن آدم جاء دفعة واحدة من الطين .. ويقترح تفسيرا تطوريا لنشأة الخلق" (57).

2 – وفي قوله تعالى ﴿*اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور*﴾ (58) قال المؤلف : «فجعل من الشكر عملا لا قولا. والمتصوف واليوجي والراهب كلهم يحاولون الوصول إلى الله وإن تفرقت بهم الدروب والسكك» (59).

3 – والجهل بالعلم قاد المؤلف أيضا إلى إساءة الأدب مع الله ومع القرآن حيث تكرر في الكتيب قوله "يروي لنا الله" «يروي القرآن حكاية...» (60).

والخوض في "التفسير العلمي" مع الجهل بالعلم الشرعي ليس ظاهرة منحصرة في كاتب بعينه، بل هو واقع يصادفه المطلع في الكثير من الاسهامات المعاصرة غير المنضبطة منهجيا، وقد تجنت هذه الإنشائيات على كتاب الله بما أسقطت عليه من آراء وأهواء (61).

وأخيرا نخلص في هذا المبحث عن "حاضر الاتجاه العلمي" إلى القول بأننا أمام نوعين من الكتابات لا التقاء بينهما سواء في ناحية المنهج أو من جهة المضمون :

---

(57) مصطفى محمود، القرآن .. محاولة فهم عصري ص 69 نشر دار المعارف القاهرة 1976 م.

(58) سورة سبأ الآية 13.

(59) محمود، القرآن .. محاولة فهم عصري ص 133.

(60) انظر المرجع السابق ص 160، 161، 164، 165 ...

وانظر : مسألة " النهي عن ذكر لفظ الحكاية عن الله تعالى " .. ضمن البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ 2 ص 177، الطبعة الثالثة 1400 هـ دار الفكر بيروت بتحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ..

(61) ورغم محاولة بعض الدراسات المعاصرة نقد ظاهرة التصدي لتفسير القرآن بغير علم تحت ستار "التفسير العلمي"، الا أن أثر هذه المحاولات يظل محدودا، خاصة وقد اختلط على عامة الناس التمييز بين الصحيح والباطل بها ينشر لهم بعد أن استغلت "التفاسير العلمية" المنحرفة عواطف الناس الدينية في التلبيس عليهم. ومن أهم الدراسات الاكاديمية التي تصدت لنقد هذه الاتجاهات المنحرفة على سبيل المثال لا الحصر : كتاب د. فهد الرومي عن اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الجزء الثالث، وانظر أيضا د. عدنان زرزور، مدخل الى تفسير القرآن ص248 .. الطبعة الأولى 1416 هـ دار القلم دمشق. والله المستعان ..

فهناك إسهامات جادة ونموذجية في تعاملها مع القرآن، حيث أنها لم تسلك نهج التمحل والتكلف، بل التزمت بالضوابط المقررة في العلم.

وهناك إنشائيات تجنت على التفسير وحملت القرآن كل غريب مستطرف لاح للذهن، اندفع أصحابها إلى الخوض في آيات القرآن دون أن يكونوا مؤهلين للكلام في التفسير، وكان لاعتقادهم بيُسْرِ ما أقدموا عليه، وتصورهم بأن تفسير كتاب الله مُشاعٌ أثرَ في توجههم.

وإذا كانت الإسهامات الجادة مقبولة لانضباطها من جهة، والحاجة إليها في فهم معاني بعض آي القرآن من جهة ثانية ..

فإن الكتابات التي تجاهلت ما يتطلبه التصدي للتفسير وجنحت مع العاطفة أو كانت قولا في كتاب الله بغير علم ..، هذه الإنشائيات مردودة وباطلة ؛ وقد تواتر عن المتقدمين والائمة والعلماء من هذه الأمة منذ الصدر الأول التحذير من التقول على الله والجرأة على تفسير كتابه بمحض الظن أو بالهوى.

خاتمة الدراسة

عملت هذه الدراسة على تجلية مراحل نشأة وتطور التفسير العلمي للقرآن الكريم ؛ فأما ما يتعلق بالنشأة فإن هذا التفسير ارتبط ظهوره بالقرن الثاني الهجري وكان غرضا من أغراض علم الكلام، إذ لجأ علماء أصول الدين وأهل الكلام إلى الاستدلال على قضايا التوحيد بأدلة الخلق التي أشار اليها القرآن نفسه ؛ وأدى بهم ذلك إلى اللجوء لتفسير آيات الافاق والأنفس في ضوء معطيات عصرهم العلمية.

ثم في مرحلة لاحقة ظهر التوجه إلى التأليف والتصنيف في التفسير العلمي باعتباره غرضا ومقصدا للمفسر، فبرزت نتيجة لذلك بعض التفاسير العلمية التي سعى مصنفوها إلى تفسير القرآن كله ..

وقد حرصت هذه الدراسة في عرْضها لحاضر الاتجاه العلمي على أن تنظر لمختلف الإسهامات المعاَصرة في الموضوع نظرة متأنية تقويمية غايتها التمييز بين الجيد والرديء من هذه الإسهامات ...

وخلصت الدراسة إلى أن هناك تآليف نموذجية في التفسير العلمي ابتغى مؤلفوها خدمة القرآن والإسلام وأخلصوا في قصدهم بما حرصوا عليه من نظر للقرآن في ضوء مختلف أصول وقواعد وآداب التفسير بالرأي والاجتهاد ...، وهذه التآليف هي التي يصح أن يصطلح عليها "بالتفسير العلمي للقرآن الكريم".

في المقابل تعرض المكتبات ودور النشر الكثير من الكتابات المنسوبة إلى التفسير العلمي ألفها بعض المنبهرين بالعلم المادي والمدنية المعاصرة الذين راحوا يبحثون في القرآن عن تصديق لمختلف الفرضيات والنظريات والحقائق العلمية ..

كما "امتطى " التفسير العلمي بعض المنسوبين إلى الخير فتمحلوا في حمل آيات القرآن على معان لا تدل عليها ...، احتسابا منهم فيما زعموا فنشروا للناس تآليف طغى على منهجها التكلف ؛ وهذه الكتابات متجنية على التفسير وعلى العلم والمعرفة...

واعتبارا لهذا الواقع الذي انتهى إليه الاتجاه العلمي في العصر الراهن لابد من الدعوة إلى اعتماد ضوابط منهجية يُلزم بها المقدم على تفسير القرآن علميا، مع اعتبار أي تحرر أو رفض للالتزام بهذه الضوابط سعيا حثيثا للخوض في كتاب الله بالهوى وهو ما وقع تحريمه والنهي عنه. والله تعالى أعلم وأحكم.